هـــدى بـــركـــات الـــروائـيـــة الـلـبـنـــانـيـــة :

حياتي الحقيقية مملة وشحيحة وأعوضها بمغامرات الكتابة

حاورتها : فاطمة المحسن

كان علي أن أتابع هدى بركات وهي تتحدث باللهجة اللبنانية عن الأدب والحياة وسط ضجيج العراقيين واللغط الذي يصم الآذان في مهرجان المدى الثقافي. بدأنا نرفع أصواتنا كي نتغلب على الميكرفون الذي يردد خبرا عن مقتل زعيم القاعدة في بلاد الرافدين، وفيما يشبه التواطؤ أهملنا ما سمعناه ولم يرتسم على وجهينا أي إنفعال أو مشاركة في الأحداث التي يحملها القادمون من بغداد.نحن هنا في المنطقة العازلة التي قدمنا منها مثل جنود يتمازحون على المتاريس.

كنت أحمل لهدى بركات سؤالا يضمر تعجبا عن سر قدومها الى هذا المكان، حيث الهواء المثقل بالتوتر يعبر مثل شبح خفي. ولكنني تريثت كي أستمع اليها متحدثة عن تجربتها في كتابة الرواية. فهدى بركات دخلت الأدب من أوسع أبوابه عندما نشرت (حجر الضحك) الرواية التي تفردت بالبحث عن علاقات مختلفة في منظومة التواصل الانساني خلال سنوات الحرب اللبنانية، واقتربت في روايتها الثانية (أهل الهوى) من مناطق التجاذب بين المرأة والرجل، مهملة شكاوى الفصل بين الجنسين. من هنا بدأنا الحديث.

❖ دخلت عالم الكتابة متأخرة على نحو ما، وكان دخولا موفقا استطعت خلاله اثبات حرفية عالية. كيف حصل هذا ولماذا امتنعت عن الكتابة في سن مبكرة؟.

– كنت أخاف النشر، فأنا قارئة جيدة،وقدر ما كنت معجبة بنتاجات الأخرين لدي انطباع بأن أية إضافة ستكون محض مغامرة تنطوي على مخاطر، فليس بمقدوري الإدعاء بجدارتي في اضافة شيء جديد الى ما أقرأ. كنت " أستهول" تقديم ماأكتب الى القراء،فمن أنا لأدخل حلبة المنافسة. ثم أن زوجي كان شاعرا مشهورا وهذا ضاعف خوفي من مستوى ادائي. بالطبع كتبت منذ مراهقتي وكنت ألقى الإعجاب من قبل اساتذتي ولكنني نشرت منتصف الثمانينات أول عمل لي لجس النبض، مجموعة قصصية تحت عنوان (الزائرات) لاقت اعجابا شجعني على المضي في كتابة الرواية.استغرقت خمس سنوات كي انجز (حجر الضحك) وكنت بلبنان ولم أغادرها بعد.

❖عندما ظهرت روايتك الأولى كانت موجة الكتابة النسائية قد وصلت أوجها، ولا يمكن تخيل رواية أو قصة تظهر لكاتبة دون الموضوع النسوي، لماذا أهملت هذا المكون، ولماذا إخترت أبطالا من الرجال لرواياتك، ولم لم تحاولي تخييل تجربتك الشخصية كما فعلت معظم الكاتبات؟

هدى بركات

– في حياتي الشخصية لم أكن أشعر بأن معاناة المرأة أكبر من معاناة الرجل،.خلال السنوات الأولى للحرب الأهلية، كنت أرى أن الثقل الحقيقي لمشاكل الحياة يقع على عاتق الرجل، فهو ملزم بالدفاع عن عائلته وأخواته وأمه ومجموعته، ولم يكن حرا في خياراته، بل هو مسخر من اجل الأخرين، هذا ما كنت أدركه من عذابات أبي وأخي خلال الحرب. إضافة الى هذا كان ينتابني إحساس بأن الكتابة النسائية قد إستنفدت، فأنا من الجيل الذي أتى بعد ليلى بعلبكي وغادة السمان، والسمان في النهاية بدأت تكرر نفسها. لا أستطيع التقليل من أهمية الكتابات التي تطرقت الى قضايا المرأة، وربما تدرج تجربتي في باب القبول بتنوع الخيارات.

❖ ربما لأن ثقافتك الغربية وبيئتك المسيحية ساعدتك على تجاوز الوقوع بمشاكل النساء.

– ربما، ولكن كان ينتابني شعور بأن في تلك الموجة مغالاة وصلت الى جدار معين وعليها أن تقف بعد أن تحولت الى أيديولوجيا أكثر منها بحثا في الشرط الإنساني. ثم أنا شخصيا لم يكن لدي احساس بالإضطهاد. على اية حال لاأعرف في الحقيقة من أين تبدأ مكونات المادة الروائية،وكيف يحدد الكاتب خياراته.

❖ لنتكلم عن شخصياتك الروائية، هي تتميز بإشكالية نموذجها غير المنجز.فهي مترددة غير مبادرة، ينتابها ضعف وخوف من الخارج، هل اخترتها بهذه المواصفات او كنت تحاكي شخصيات عرفتها؟

– في رواياتي الأربع، شخصياتي حائرة لم تقرر ولم تخرج بقناعة. هي تحب أن تشارك في صناعة ذاتها، أو تجد موقع قدمها أو تلقى قبولا إجتماعيا ولكنها تبقى معلقة. شخصياتي مشكوك في جنسها وخياراتها، واحد منهم ربما يكون شاذا جنسيا، وآخر يخاف من الدم ولكنه يحاول العكس. وهكذا كلهم يحاولون الحصول على براءة ما. عذابات شخصياتي تحدد المكون الأخلاقي لسؤالهم من أين نأتي بقوتنا ومكاننا في العالم. فقط إذا كنا مصرين على العيش ولدينا قدرة على بلوغ هذا الهدف.

الجانب الاخلاقي يشغلني في الرواية،وهذا ما اكتشفه النقاد الغربيون في رواياتي بعد ترجمتها. نظام القيم الاخلاقي الذي تربينا عليه وبدأ ينهار هو ما يشغلني.

❖ هل هي محاولة لاعادة انتاج الروايات الملتزمة التي تبحث عن الكيفية التي يعيش فيها الناس عيشة سعيدة دون شرور وأشرار، وهل هي مهمتك كروائية؟

– نحن موجودون في فترة حرجة من تاريخ البشرية، الحروب هي حجة المجتمعات المنفلتة من القيم. الحرب في روايتي الأولى وفي غيرها كانت مختبرا لمجتمعنا المنفلت من النظام الاخلاقي. المجتمع الذي يشرع للقتل والغاء الآخر والعنف في مختلف صوره. إنتبهت الى هذا التصور بعد أن تُرجمت أعمالي الى اللغات الأخرى وكتب عنها النقاد الغربيون، فنبهوني الى أن الذي يشغلني ككاتبة ويشغل شخصياتي هو انهيار النظام الاخلاقي.

❖ هل هناك مناطق لم تصلها هدى بركات في كتاباتها؟ مثلا لو عكسنا الأمر وبدأ الكاتب بتصوير مقادير العنف والقسوة والقذارة في مجتمعاتنا،هل تخسر كتابته جمهورها ؟ .وهل هو في محاولته تجاهل هذا العنف والقسوة، أو معالجته على نحو أخلاقي يساهم في تحسين صورة المجتمعات العربية التي تخفي قذاراتها بالتشدق بالقيم الخيرة؟ .

– انت تفتحين باب الحوار باتجاه مواضيع حساسة. لأقل لك أنا نفسي عندما أفكر بذاتي أكتشف أنني كائن أعنف بكثير مما يمكن تبريره أخلاقيا،لأجل هذا يستمر الصراع داخلي. لو خيرت في تربيتي لأبني بين أن يكون جلادا أو ضحية لاخترت له دور الجلاد كي لايكون الجانب الضعيف في مجتمعات لاتمنحنا سوى هكذا خيارات. مرت البشرية كلها في هذا الطور وعلينا ان نرصد تحولاتنا.

الى اليوم هناك أدب يُكتب في أوربا عن الحرب العالمية الثانية، وهناك كتاب يسألون أنفسهم لماذا حلق شعر أمي وعوملت بقسوة بعد اندحار المانيا. من كان أبي الذي تعاون مع النازية أو أمي التي كانت تخرج مع الجنود الألمان من أجل إطعامنا.

في الغرب هناك أدب السؤال، أدب البحث. أفكر بنتاجي عندما يتماس مع هذا المقترب. في (أهل الهوى) يفكر البطل بالقتل ويحلم به، وفي (سيدي حبيبي) يمضي البطل بجوار تاريخه كمليشياوي. . نحن مجتمعات عنيفة وتنتج العنف.لنتكلم عن العراق هل المجرمون او الإرهابيون قادمون من كوكب آخر؟ .

في الغرب مجتمعات تنتظمها ما تبقى من أشكال الدولة. هناك مؤسسات متعددة الجنسيات. دور البوليس في قمع ضواحي فرنسا غير معروف هل هو قامع من أجل القمع أو يملك شرعية القمع؟ هذه الازمات نتشارك فيها مع العالم، ولكننا ككتاب عرب منسحبين الى زوايا ضيقة.

❖ كيف تفكرين بتجربة الإرتحال؟. المكان الروائي او مكان الكتابة هو افتراضي بالضرورة.المثقف موجود في مكان هو اللامكان، فالثقافة اليوم عابرة للحدود، والكاتب عبر عملية التخييل مرتحل بين تلك الثقافات، مرتحل بشرط الكتابة ذاتها. هل يشغلك هذا الموضوع؟.

– أمكنتنا ككتاب يجب ان تكون إفتراضية.ليس بمقدورك المكوث في وطن محدد حتى ولو كتبتَ وأنت في وطنك. لو حاولت حصر رؤيتك في مكان معين، وقصرت مخيلتك عليه، هذا يعني انك أغلقت الأبواب على نفسك. . كل من لديه حس بالشرط البشري لايستطيع المكوث في وطن محدد. كل رواياتي تدور أحداثها بلبنان وأنا أكتب بالعربية، وشخصياتي لبنانية، ولكن كل تلك التجارب والحوادث ليست تجاربي ولا الشخصيات تشبهني، هي عالقة في عالم الخيال. تصوري العراق لو كان عراقك، تصوري كمية الجيوش التي تحتله والتدخلات الخارجية. ماذا يكتب العراقي الآن، بالضرورة يبحث عن مكان إفتراضي، وهذا لا يتحقق بقصد وتصميم. لو رجعت أنا الى لبنان لاستقبلت بكرامة ومحبة، ولكن وطني يشبه سواه،يشبه العراق من حيث هو مادة لمعاناة ومشاكل العالم ودول الجوار. هذا على صعيد الوطن الواقعي. ليس لنا ككتاب أن نكون محليين،وليس لدي مشكلة في أن أكون في أي مكان، فعالمي هو الكتابة.

❖ لماذا قدمت الى العراق، ولماذا قبلت الدعوة؟

– لأنني أريد أن اعرف عن الأكراد وكيف يعيشون. أنا معجبة بهم كشعب وثقافة، تلك الثقافة التي لم تستطع التموضع في دولة أو في مشروع دولة. نصف تأريخ الأكراد خرافة. هذا المجتمع الذي مازال مجتمعا رعويا، وهو مجتمع حر بلا حدود،كما تصورته أريد أن أراه كما هو. روايتي (أهل الهوى) نصفها عن الأكراد. ولعي المفترض بالعالم الكردي وبالثقافة الكردية دوافعه ما يعانيه الأكراد من إضطهاد. هم ضحايا لأزمات كونية متكررة. مرات وعدوا بالإعتراف بهم كشعب له حقوقه ومرات خاب أملهم في تكوين دولة. أريد أن أعرف كيف يعيش الأكراد، ماهي مناطق تحرك ثقافتهم. أريد أن أراها في الواقع وليس في الرواية.

❖ لنتحدث عن حياتك الشخصية. تزوجت وطلقت وعشت تجربة الحب وكتبت عن الهوى والعشق. كم تقترب تجربة الكتابة عن الحب من تجربتك وأيامك التي تمضي؟

– عندي تقدير للحب هو أقرب الى الإعتقاد الإفلاطوني باستحالة تحقق حلم الحب.

لاأعرف لماذا أكون سعيدة عندما ألتقي بعاشقين. انا شخص متوحد. ليست لدي موهبة العيش مع الآخر. عندما ينقص الحب في حياتي يزداد شغفي في الكتابة عنه.حين كتبت (أهل الهوى) لم أكن عاشقة على الإطلاق. ربما الحب صعب في عمر معين، عندما تحرقين أجنحتك، تصبحين اكثر غنى في اعتبار التجربة مشروعا للتحقق.

تجربتي الروائية في الحب أغنى بكثير من حياتي التي تنطوي على تفاهات كثيرة ومملة وفيها مشاكل لاتستحوذ على إهتمام أحد. . يصبح لمفهوم الحب وقع أكبر عندما ينتقل الى الإحساس بالطبيعة والاشياء على نحو مختلف.

من اوراق اسبوع المدى الثقافي الخامس

قصيدة النثر ..إطلالة استشارية على الماضي

محمد علي الخفاجي

ملخص الجزء الأول

أمثلة

تعال ايها الصمت
وغلّف أجسادنا
بلمساتك العريضة
❖ ❖ ❖ ❖
الصمت لبى نداءك
ولكن لمساته
ليست إلا خفقات أجنحة
تبعث فينا العذاب
(نص إسلامي قديم)

❖ ❖ ❖ ❖
الحكمة تنادي في الخارج
في الشوارع تعطي صوتها
تدعو في رؤوس السواق
في مداخل الأبواب
في المدينة تبدي كلامها
ها أنذا أفيض لكم من روحي
أعلمكم كلماتي
(نص من الميلاد)

❖ ❖ ❖ ❖
الأوراق في البستان كتاب مرقوم
خط عليه بالخط الأخضر
إنني أطلب شرحه ممن عنده علم الكتاب
من كان قلبه مجتمعاً كالبرعم
فإنه يتفتح كالوردة
(نصوص عربية إسلامية قديمة)

❖ ❖ ❖ ❖
يهرب قلبي
فيصعد كالطير في السماء
أنت كالحمامة
وأنا أنحب كل يوم
(نص بابلي)

❖ ❖ ❖ ❖
ليس لأحد أن يدعي ملكية الحق التاريخي للبداية التي ليس لها بداية في كتابة قصيدة النثر أو نصوص النثر الشعرية ، أو أن يضع خمسينيات القرن الماضي تاريخ انطلاقة لها . ذلك أن القصائد التي نشرتها مجلة شعر ١٩٥٧ لأول مرة ، لم تكن هي الأصول الأولى لهذا النوع من الكتابة ، بل سبقتها –منذ بدايات العقل المبدع – نصوص قديمة متحضرة أمسكت بالمعيار الشعري مبكراً وتميزت بالتقنية الطيبة وحددت قيمتها فواصل النبر والإيقاع التي ارتقت بها عن المألوف . ولعل السبب في تأخر تداولها عائد إلى انحياز المزاج الشرقي –والعربي خاصة –إلى الموزون من الموروث الشعري وسيلة إبداع وتلقي . على الرغم من أن شخصية هذه النصوص كانت مبررة فنياً إذا ما تم عرضها على المقاسات التي تقترحها قصيدة النثر الحديثة من أنظمة قارة لها . ولا حاجة لنا لمزيد من الدقة والحرص في البحث عن اصل الشجرة التي تجمعها بباقي أفراد السلالة . فهي نصوص قارة أيضاً تجاوزت الخطاطة الأولية للكتابة إلى إنجاز بناء بارع ديناميا
الأخيلة ترتعد تحت المياه
الهاوية عريانة قُدّامه
والهلاك ليس له غطاء
يمد الشمال على الخلاء
ويعلق الأرض على لا شيء
يصر الماء في سحبه
فلا يتمزق الغيم عنها
رسم حداً على وجه المياه
عند اتصال النور بالظلمة
❖ ❖ ❖ ❖
إن استقرار النموذج المعترف به بوقائعه التركيبية وليس التناظرية يظهر مدى وعي شاعر ذلك النموذج بالتكامل المحرك له . ومن خلال مجموعة النصوص التي سأوردها شواهد على زعمي هذا سوف يكون واضحاً لمبدعي الشعر والمشتغلين على دراسته أن الأنماط التي تقترحها قصيدة النثر الحديثة من أردية متعددة ومتنوعة لها لم تسجل انحرافاً بائناً عنها في اتجاه التطور حتى في تركيبة البنى وكأنها كانت طوال هذه القرون بمعزل عما يتركه العامل التاريخي عادة من تأثير معهود في التشكيل والوظائف ، إذ من القراءات الأولى لهذه النصوص تصدمنا تلك المهارة التي عرضتها صياغتها لبناء نص جمالي متقدم والتي كان من الممكن –وهي ما تزال تتكون في أدوار استحالتها الأولى إلا ترقى إلى أعلى من كونها الصيغة الأصولية الأولى لها سواء في تلمس الإيقاع الداخلي بتلك الدقة المتناهية أم الانتقال البارع داخل كتلة الكثافة من دون أن تصادر المعنى تحت وابل من الاضطراب الأدبي والإبهام الزائف . وإذا كانت هذه النصوص رافدينية أم فرعونية أم هي مما تركته لنا قرون ما قبل الميلاد أو ما بعده وصولاً إلى ميلاد القصيدة الحديثة عربياً سنة ٥٧ (لتوفيق صائغ ، عصام محفوظ ، شوقي أبي شقرا ، محمد الماغوط ، انسي الحاج ، ناديا تويني ، تيريزا عواد ، صلاح ستيته ، أدونيس ، جبرا إبراهيم جبرا ، يوسف الخال –وإن كنت أتحفظ على تاريخ هذه الولادة الحديثة –فهي مسبوقة بعشرات السنين . وليخائيل نعيمة في بداية القرن العشرين كتاب بمثل هذه النصوص مطبوع يمكن اعتباره ديوان شعر لقصيدة النثر) بهذه الشعرية اللسان الأسلوبي . وهي توضح الخصيصة الإبداعية لمنظومة البلاغة اللغوية . فإن قصيدة النثر لم تكن إلا تواصلاً وامتداداً لها . وليس هي بدعة شعرية جديدة –كما لو استخرجت هذه من تلك –حتى ولو بدت شائعة أكثر . وهي ميزة قد توضح وجهاً آخر لحالة الشيوع حين أثقلت بالكثير من التشوه وداخلها الكثير من الأدغال الضارة . وهو ما تنزهت عنه تلك النصوص التي وصلتنا عبر مصفاة الزمن سهلة منيعة ومترعة بالإمتاع والشعرية .
إني في وكري أسلم الروح
ومثل السمندل أكثر أياماً
أصلي منبسط إلى المياه
والطل بات على أغصاني
فتزرع لتأكل
وأزرع لأؤكل
(نصوص في بداية القرن العشرين)

❖ ❖ ❖
في قلب الرجل العادل
الظل يحارب الضياء
أنت تتخلى عني بقسوة
يا نور القرار الصائب
إن ذلك هو الذي ساعد تلك النصوص على البقاء حتى يومنا هذا . وسوف أطري الآن ذكر أمثلة على الأصول التي صيغت منها تلك الصنعات . وأقول صنعات بعد أن بدت مبرأة من أية سذاجة أو طقوسية بحتة . وإنما تمثلت نتاجاً مقصوداً حولته طبقات التراكم التجريبي عبر المسار الزمني إلى ماس شعري تجلى فيه بريق الشعر بإيقاعاته الداخلية وأبنيته الصوتية ونسق تراكيبه المدهش وتنوع الموضوعات .
قالت الجرة لخزافها
لم وسعتَ بطني وضيّقت بلعومي
قال لها مخافة أن تبتلعيني
❖ ❖ ❖
قيل لوتد
ما أسرع ما دخلت في الأرض
قال آه ... من كثر الطرق على رأسي

❖ ❖ ❖
وهذا نص لأديب يخاطب فلاحاً :
محراثك من حديد
ومحراثي من قصب
وحقلك من تراب
وحقلي من ورق
وما الفرق
إلا في أنك تبذر من كفّك
وأبذر من قلبي

❖ ❖ ❖
وفي نص آخر إسلامي قديم :
كان كلما رأى ألفاً
تذكر قامتها
وكلما رأى جيماً
تذكر صدغها
وكلما رأى هاءً
التم على نفسه وبكى

❖ ❖ ❖
لا نستطيع أن نضع نقطة خالك
على لوحة البصر
فربما وجب علينا
أن نطلب حبراً من ماء العين

-مجلة حوار ، العدد الأول ، السنة الثانية ، ١٩٦٣ .
-نازك الملائكة ، مذكرات .
-محمد عزيزة ، كتاب الهلال .
-سيد خميس ، مجلة الهلال ، عدد قديم .
-ميخائيل نعيمة ، كرم على درب .
-مجلة شعر ، ١٩٥٧ .
-مجلة المسرح المصرية
-سفر الأمثال .
-سفر أيوب .
-المزامير .
-الحياة في بلاد بابل وآشور .
-سومر ، أندريه مارلو .
-بابل ، أندريه مارلو .

قـــراءة في كـتـــاب

المـــشروطـيـــة والمـــســتـبـــدة

عرض: مهدي النجار

تأليف: رشيد الخيون
منشورات: معهد الدراسات الستراتيجية ٢٠٠٦ بغداد-بيروت

لقد اغتنت المكتبة العربية بواحد من الكتب البحثية الجادة والعميقة، كتاب المشروطية والمستبدة، وهو من الهدايا الثمينة التي قدمها الباحث رشيد الخيون للقراء بمناسبة الذكرى المئوية (١٩٠٦- ٢٠٠٦) لحركة المشروطية من اجل نظام دستوري بايران وتركيا والعراق. وجاء الكتاب في بمجملة قراءة في تاريخ الخلاف بين المشروطية (الدستورية) والمستبدة وقد انهمك في اضاءة تلك الفترة مع مقدمة وافية لمسألة الإمامة او الخلافة في الإسلام (او ما تعرف حديثاً بالحاكمية) لانها كانت ومازالت عصب الخلاف او نقطة الخلاف الكبرى بين المدارس الاسلامية كافة. والمسألة حسب الفقيه الشافعي والمفكر الاشعري ابي الفتح عبد الكريم الشهرستاني (ت٥٣/ ميلادية) هي : "اعظم خلاف بين الامة خلاف الإمامة. إذ ماسل سيف في الإسلام على قاعدة دينية، مثل ما سُل على الإمامة في كل زمان". وكان للمشروطية والمستبدة فقهاء ومفكرون هؤلاء ينظرون واولئك يفتون ويحشدون الاتباع حولهم وبطبيعة الحال كانت العامة تلتف حول المستبدة، لان الاقناع بالتغيير او التجديد له متطلباته الثقافية والحضارية اما المحافظة على السائد فلا تكلف غير تقوية الواعز الديني لذا نجد ان اغلب اتباع المشروطية كانوا من المتنورين من ادباء وشعراء ومتمردين على الاستبداد، وفي مقدمتهم الميرزا النائيني صاحب كتاب "تنبيه الأمة وتنزيه الملّة".

يتألف كتاب المشروطية والمستبدة من ثلاثة ابواب يتناول الباب الأول : لمحة تاريخية في الامامة، واقتراب الشيعة من الدولة والمدرسة الشيعية في الحكم. ويدرس الباب الثاني: المشروطية والمستبدة في ايران وتركيا والعراق.

اما الباب الثالث فيتحدث عن النائيني مفكر المشروطية ورسالته "تنبيه الأمة وتنزيه الملة" ويخلص الباحث على ان ما كتبه الشيخ محمد حسين النائيني في رسالته تلك يعد سابقة يسجلها عالم دين والذي اعتبر في وقتها مفكراً للمشروطية او الدستورية، نجد في الرسالة تأسيساً لحياة برلمانية حديثة، للرعية حقوقها وللحاكم واجباته، وفيها دعوة الى ما يمنع الاستبدادين الديني والسياسي من الانتشار وقد اعتبر الاستبداد الاول (الديني) قاعدة واساساً للاستبداد الثاني (السياسي) وقد شمل نقده لفقهاء الدين المستبدين مثل صاحب "الخراج" قاضي القضاة ابي يوسف او صاحب "الاحكام السلطانية" قاضي القضاة ابي الحسن الماوردي. وكل من أسس للاستبداد باسم الدين والمذهب.

وينقلنا الباحث في الفصل الرابع من الباب الثاني الى اشكالية الاستبداد مشيراً في المقدمة الى ان تاريخ الدولة الاسلامية وعلى وجه الخصوص من بداية العهد الاموي حتى نهاية الدولة العثمانية والايرانية القاجارية ، وما حولها من امارات وسلطنات، هو تاريخ ادارة جامعة بين الاستبداد الديني والاستبداد السياسي. وقد تضافرت آراء أكثر العلماء، من الناظرين في التاريخ الطبيعي للأديان على ان الاستبداد السياسي متولد من الاستبداد الديني.

والكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" يقول : "إن لم يكن هناك توليد فهما اخوان، وابوهما التغلب والرياسة او هما صنوان قويان بينهما رابطة الحاجة على التعاون، لتذليل الانسان، والمشاكلة بينهما وانهما حاكمان، احدهما في مملكة الاجسام، والاخر في عالم القلوب" ورغم طول فترة الاستبدادين الديني والسياسي، فان كل ما قدمته الثورات هو استبدال مستبداً بآخر، فما قرأناه في يوميات ثورات الخوارج، والقرامطة، والزنج، والبابكية، والزيدية وغيرها من حركات في التاريخ الاسلامي، كان مغرياً من جانب الخروج على سلطات مستبد وجائر، لكن ليس لدى تلك الحركات او الثورات ما يعالج الاستبداد من الاساس فما ان تنجح الحركة حتى تقيد الناس ببيعة مستبدة جديدة، وهلم جرا.

يستنتج الباحث رشيد الخيون بان الخلاص كما يبدو ليس في الثورة على المستبد فقط، بل في اشراك الامة في السلطة، واشرافها المباشر عليها ويستشهد بافادة أبرز أقطاب التنوير في القرن التاسع عشر عبد الرحمن الكواكبي (ت ١٩٠٢) حيث يقول: كل يذهب مذهباً في سبب الانحطاط، وفي ما هو الدواء، وحيث اني قد تمحص عندي ان اصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي، وقد استقر فكري على ذلك- كما ان لكل نبأ مستقراً- بعد بحث ثلاثين عاماً..." ثم في الفصل السابع من الباب الثالث يعود الباحث رشيد الخيون يستعرض الممارسة الفكرية للمنظر او المفكر للدعوة المشروطية او الدستورية ويعتبر دعوته تعادل بالنسبة الى زمن الحركة وظروفها واتباعها، منفيستو الحرية والتقدم او هي بمثابة البيان الشيوعي بالنسبة للحركة الاشتراكية (١٨٤٨) حيث يعتبر النائيني الاستبداد رأس الفساد، وان الاستبداد الديني اخطر من الاستبداد السياسي ويكرر نعت الاستبدادين الديني والسياسي بالشجرة الخبيثة، واعتبر النائيني تحقيق المساواة والحرية ونبذ الاستبداد، وهما اهم اركان الدولة الدستورية، حسب الفقه الشيعي، من وظائف الإمامة "مقدور من القوة العاصمة الآلهية" "في مقام القوة العاصمة الالهية" ولدى اهل السنة "في مقام القوة العلمية وملكة التقوى والعدالة" وربما هذه اشارة في هذا التفصيل الى الدولة الايرانية، حيث رسمية المذهب الشيعي، والى الدولة العثمانية حيث رسمية المذهب السني، إذا علمنا ان المعركة بين المشروطية والمستبدة كانت تجري في الدولتين بقوة آنذاك.

إن أهم مغالطة من مغالطات المستبدين اشار اليها الشيخ النائيني واطنب عندها، فهي حجتهم اننا مسلمون وقانوننا القرآن السماوي والسنة النبوية لاغير، وهي حجة شبيهة بشعار الخوارج "لا حكم الا لله" وان وضع قانون آخر يعد بدعة تتعارض مع الشريعة الاسلامية.

يرد الميرزا بان الحرية والمساواة لا تتعارضان مع الشرع الاسلامي، فالأهم في الامر الغاية والقصد في أن تتفق الامة على تنظيم امورها التي شبهها الميرزا بأهل بيت واحد. وعلى العموم ان المقصد الاساسي من وضع الدستور هو تقييد الظلم والاستعباد، ولم يخرج هذا القانون في حال من الاحوال على مقتضيات الشريعة. ويشير الميرزا النائيني الى أن الجهل منبع الشرور، مثل الجهل في دعوة الانسان الى اشراك المستبد مع الذات الالهية وهي الحكومة الالهية، ويعني هذا جهل الانسان بحريته وبحقه في المساواة، وهي حق الهي مقدس لا يحق للمستبدين مصادرته ويجد في الاستبداد الديني خداعاً للامة وذلك باستغلال جهالاتها ولا علاج لتلك القوى "الملعونة" الا بمعالجة الجهل، وشرح حقيقية الاستبداد والديمقراطية.